تأثر الدعوات الإصلاحية في أندونيسيا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

للأستاذ نجيح عبد الله

مدير معهد مسكوميان الإسلامي بترشيك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم يرجعون .

وبعد، فهذا بحث وجيز في دعوة المصلح العظيم الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتأثر الحركات الإصلاحية فى اندونيسيا بها .

أقدمه تطفلا على مائدة العلماء الكرام فى أسبوع للشيخ محمد بن عبدالوهاب الذى تقيمه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

وإنى لا أحسب أن فى وسعى أن أستوعب جميع تأثيرات هذه الدعوة المباركة فى جميع نواحى الإصلاح، بل ولا أجرؤ أن أقول إن فى استطاعتى أن أقدم بحثا شاملا عن جزء واحد منها، وذلك لعجز قلمى، وقلة باعى، وقصور علمى بالنسبة لتلك التأثيرات المترامية الأطراف المتعددة الجوانب .

لذا أكتفى بأن ألقى الضوء على بعض تأثيرات أحد كتب الشيخ الذى عم نفعه والذى قرر تدريسه فى بعض المعاهد الدينية، واتخذ مرجعا هاما فى الأماكن الأخرى مع صعوبة تناوله فى أندونيسيا، وهو «كتاب التوحيد».. سائلا المولى جل وعلا أن يرزقنى فيه التوفيق والسداد.

الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية فى العصر الحديث :

فى القرن الثامن عشر الميلادى كان العالم الاسلامى ساقطا فى هوة عميقة، لا توجد له علائم للقوة الصحيحة، عم أرجاءه الجمود والخمول، وانتشر فيه فساد الأخلاق بشدته، وغابت فيه بقايا آداب العرب يبتلعها الترف المفرط عند طائفة، الذى تولد منه بؤس الأكثرية العظمى، وتوقفت حركة التعليم .

نعم، هناك عدة جامعات أقعدها الجمود، وعاشت عيشة كفاف لا يهتم بها..

هكذا وصف العالم الأمريكى الدكتور لوثروب ستود دارد العالم الإسلامى آنذاك فى كتابه حاضر العالم الإسلامى.

ثم بعد وصفه أحوال المسلمين الاجتماعية والسياسية استطرد قائلا:

« وأما الدين فقد أصابه الجمود شأن غيره من نواحى الحياة، فالتوحيد الذى أرشد إليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد غشيته الخرافات وآراء الصوفية وخلت المساجد من معظم العوام، وكان الناس يحملون العزائم والتمائم والسبحات، ويعبدون الأولياء، ويتخذونهم وسائط إلى الله ليقربوهم إليه زلفى لزعمهم أن الإنسان العادى لا يستجاب له إلا بواسطتهم.

غابت عن الناس الفضائل التى علمها القرآن أو استهانوا بها، فصار شرب الخمر والمخدرات فى كل مكان، وعم البغاء، وانتشرت الرذائل، وهتك الأعراض على غير خوف ولا حياء ..

وأصاب المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة ما أصاب غيرهما من مدن العالم الإسلامى من الرذائل والشرور، وصار الحج الذى فرضه الله على عباده المؤمنين عملا ذليلا يجرى على غير مجراه الصحيح.

وبالجملة، فقد فقد الاسلام حيويته، وبقى طقوسا بلا روح وهبوطا بعيد القرار، فلو عاد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وشاهد ما كان عليه الإسلام فى ذلك الوقت لغضب غضبا ولصب اللعنة على معتنقيه المرتدين عبدة الأوثان .

فبينما الإسلام كذلك فى ظلام داهم إذا بصوت عال يدوى من قلب الصحراء الواسعة ـ مهد الإسلام ـ يدعو المسلمين إلى الرجوع إلى النهج القويم، وصاحب هذا **الصوت هو المصلح المشهور محمد بن عبدالوهاب الذى أوقد نار الإصلاح، فعلا لهيبها واندلعت ألسنتها إلى جميع أرجاء العالم الإسلامى.**

وكان الرجل يحث المسلمين على إصلاح النفوس وعلى استعادة المجد والعز القديمين، وبهذا ابتدأت اليقظة الإسلامية الجبارة.

نعم ابتدأت اليقظة الحديثة فى العالم الإسلامي بدعوة هذا المصلح العظيم، الذى دعا الناس إلى تصحيح مفهوم التوحيد وتنقيته من شوائب الشرك ـ ما ظهر منها وما بطن ـ ودعا إلى منهج السلف الصالح فى فهم العقائد الدينية السهلة السائغة للعقول وإلى نبذ تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية منها، ودعا إلى نبذ ما شوه الشريعة من البدع والتحريفات .

وقصارى القول أن هذه الدعوة تدعو إلى الإسلام على صورته التى وضعها صاحب الشريعة، فكانت بذلك توقظ العقول النائمة وتحرك الهمم الراقدة، وتعيد إلى القلوب حرارة الايمان، وتطهر النفوس من أدناس الخرافات والأوهام، فحق ما يقال إنها هى الشعلة الأولى لليقظة الإسلامية فى العصر الحديث، وأن جميع الحركات الإصلاحية التى ظهرت فى سائر الأقطار الإسلامية فى العصر الحديث لها صلة بها ومتأثرة بها ومدينة لها.

وفى رأيى أن ستود دارد لا يجافي الإنصاف حين يقول:

« وحدث انفجار الوعى الإسلامى الأول فى قلب صحراء شبه الجزيرة مهد الإسلام،

هناك فى مطلع القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الوهابية على سبيل الدعوة الإصلاحية الإسلامية، ثم تطورت الحركة وصارت يقظة إسلامية واسعة الانتشار .

وضع المسلمين الدينى فى اندونيسيا :

ليس المسلمون الاندونيسيون بأحسن حالا ولا أسعد حظا من إخوانهم فى سائر الأقطار الإسلامية، فإن المسلمين الأندونيسيين منهم الذين لا يعرفون عن الدين الذى انتسبوا إليه سوى الاسم وسوى قليل من المعلومات المشوهة بالأباطيل والأساطير الخالية،ولا يقولون بالشهادتين إلا عند الزواج .

وإنما يقولون بهما لأن الموظفين من قبل الحكومة القائمين بمراسيم عقد النكاح للمسلمين كلفوهم بمجرد التلفظ بالشهادتين قبيل العقد بدون ما فهم ولا إدراك،ولا يعرفون من شرائع الإسلام إلا الختان لأولادهم الصغار،واستقبال موتاهم إلى القبلة فى القبور، وهم لا يزالون على معتقدات آبائهم وتقاليدهم الموروثة الممزوجة من بقايا الوثنية الأولى والهندوكية والبوذية،وهؤلاء هم الذين سماهم البعض بالمسلمين الحمريين.

ومنهم الذين يمارسون شرائع الدين إلى حد ما، ويتلقون تعاليم دينهم من العلماء وشبه العلماء الذين حال بينهم التقليد المحض والتعصب المذهبي وبين النظر الصحيح فى الدين، فقد فشت فيهم البدع والخرافات وأشياء يعدونها من الدين وليست من الدين فى شئ، وهذه الطائفة معروفة بالجاوية باسم «طائفة سنترى»، والمعاهد الدينية التى التفوا حولها وتلقوا تعاليم دينهم فيها تسمى «بباسنترين».

ومنهم أسراء الثقافة الغربية ـ ثقافة المستعمرين ـ الذين يرون أن الدين إنما هو مجرد عقائد فردية وعدة طقوس للعبادة المنحصرة فى بيوت العبادة، ولا شأن له بواقع حياتهم الاجتماعية والأدبية والاقتصادية وما إلى ذلك، إلا شيئا ضئيلا من قواعد أخلاقية عامة، وهؤلاء هم أكثر الذين تقلدوا سلطة الحكم تحت قدم الاستعمار .

وبالجملة فإن وضع عامة المسلمين الديني في اندونيسيا في ذلك العصر بعيد ومنحرف عن تعاليم دينهم الصحيحة، وأنهم محرومون من مزايا دينهم العظمى.

حركات الإصلاح في اندونيسيا :

واعني بحركات الإصلاح جميع الحركات التي تدعو إلى تصحيح العقائد وتصفية الشرائع مما شوهها من البدع والخرافات والأوهام وبقايا الوثنية، وإلى نبذ التقليد الأعمى، والتعصب المذهبي والرجوع إلى نبع الدين الصافي وهو الكتاب والسنة، وكسر الجمود، والاستنارة بتعاليم الإسلام الصحيحة التي تهدى الناس إلى الحياة الطيبة.

ظهرت تلك الحركات في اندونيسيا وتنوعت من حيث الأساليب والأشكال على اختلاف استعدادات رجالها والبيئات التي يعيشون فيها، ولكنها تغزو غاية واحدة وتسعى تحت شعار واحد، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة أو الرجوع إلى نهج سلف الأمة، فمن ذلك سماها البعض «بالحركات السلفية».

ابتدأت الحركات السلفية بظهورها في سومطرة - إحدى الجزر الخمسة الكبرى في اندونيسيا - سنة ١٨٠٢م على أيدي بعض الحجاج من مسلمي الجزيرة الذين رجعوا من مكة المكرمة واتصلوا بعلماء الدعوة الوهابية - كما سماها معارضوها - واقتنعوا بصحتها واعتنقوها .

وهؤلاء هم «الحاج مسكين» وأصحابه المعروفون «بالأسود الثمانية» ولكن العوام الذين يجهلون حقيقة ما يدعون إليه سموهم «بطائفة الرهبان»، والحروب الطاحنة التي نشبت بينهم وأتباعهم في جانب وبين المستعمرين الهولنديين واعداء الدعوة في جانب آخر، معروفة باسم «حروب الرهبان» أو «برابغ بدرى» باللغة المحلية .

اشتد النزاع بين أعداء الدعوة من سكان المنطقة وبين اتباع الدعوة الذين أصبحوا

قوة لا يستهان بها، وشعرت حكومة الاستعمار أن هذه القوة سوف تهدد كيانها ونفوذها، فرأت مناهضة هذه الحركة والقضاء عليها قبل فوات الأوان، ثم انتهزت الفرصة لشن الحرب ضد المسلمين اتباع الدعوة بدعوى حماية كيان أهل التقاليد والعادات من أبناء المنطقة، واستمرت المناوشات والحروب بين هؤلاء وبين المستعمرين ما يزيد عن خمس عشرة سنة (سنة ١٨٢٢ ـ ١٨٣٧م) وانتهت بانتصار المستعمرين واستيلائهم على منطقة سومطرا الغربية، ارض مينانج كابو.

تغلبت قوة الاستعمار فى ميدان الحرب على أتباع الدعوة، ولقى معظم رجالها شهادتهم فيه، ولكن الدعوة نفسها لم ينطفىء جمرها ولم يخمد لهبها واستمرت تحرق ما حولها، ثم أخذت تتقد ويعلو لهبها فيما بعد على أيدى رجال مخصلين امثال الشيخ محمد عبدالله أحمد (١٨٧٨ـ١٩٣٣م) والشيخ الحاج عبدالكريم أمر الله (١٨٧٩ـ١٩٤٥م) والد الدكتور الحاج عبدالملك كريم أمر الله رئيس الهيئة المركزية لمجلس علماء اندونيسيا الحالى، والشيخ محمد جميل جمبيك (١٨٦٠ـ١٩٤٧م) والشيخ الحاج طيب عمر (١٨٧٤ـ١٩٢٠م) غير أنها اتخذت أسلوبا وشكلا جديدين، فأنشئت لها مجالس للتعليم والمحاضرات، وأقيمت المدارس والمعاهد الدينية تحت اسم: «طوالب سومطرة»وأصدرت المجلات ونشرت المطبوعات،منها مجلات «المنير» و«البيان» و«البشير» و«الاتقان» ورسالة «الفوائد العلية» ورسالة «إيقاظ النيام»، وهذه كلها لها آثارها الإصلاحية الواضحة وثمارها الطيبة الجمة .

ثم أخذت الحركات السلفية تنتشر في سائر الأقطار، وظهرت فى أماكن مختلفة، ظهرت فى اتشيه تحت قيادة الشيخ الأصفهانى الاتشيهى، وظهرت فى جاوا، وكالمنتان، وسولا،ويسى، والجزر الجنوبية الشرقية، ومالوكو وغيرها.

ظهرت فى جاوا جمعية «محمدية» سنة ١٩١٢م فى مدينة جوكيا كرتا عاصمة أندونيسيا السابقة، وجمعية «الإصلاح والإرشاد» سنة ١٩١٤م فى جاكرتا العاصمة الحالية، وظهرت فى باندونج عاصمة منطقة جاوا الغربية التى كانت مقرا للمؤتمر الآسيوى الأفريقى الأول جمعية «الوحدة الإسلامية» سنة ١٩٢٣م.

ومن غرائب الصدفة أن كبرى الجمعيات التى ظهرت فى أندونيسيا على أساس الدعوة الإصلاحية والحركة السلفية قد اتخذت لنفسها اسما هو عندى نسبة صحيحة للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهى جمعية محمدية، ولا أدرى أكانت هذه النسبة من مجرد المصادفة أم أنها كانت داخلة تحت الحسبان.

ظهرت هذه الجمعية على يد مؤسسها الشيخ الحاج أحمد دخلان وعلى أيدى تلاميذه المتحمسين وأتباعه المخلصين .

وكان الشيخ فيما مضى خطيبا فى مسجد السلطان فى جوكياكرتا ـ تقلد بهذا المنصب لقب «الخطيب الأمين» ـ وثريا من أثرياء تجار باطيك، وقد أدى فريضة الحج مرتين .

وبعد رجوعه فى المرة الأخيرة سنة ١٩٠٢، وبعد ما أقام فى جوار بيت الله الحرام مدة من الزمان، اتصل فيها بعلماء الدعوة وعرف حقيقتها ومبادئها وسمع منهم ما حصل لها من القضاء على كثير من المفاسد،وإعادة الناس إلى دينهم الصحيح، وبعد مطالعته لكثير من آراء علماء الإصلاح أمثال الشيخ ابن تيمية وتلميذه الشيخ ابن قيم الجوزيه، والشيخ محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا وغيرهم اشتد عزمه على بث هذه الدعوة الإصلاحية وبدأ الحركة السلفية، ثم استقال من منصبه فى مسجد السلطان، وأخذ يجاهد فى سبيل الدعوة بنفسه وماله ويثابر عليها مثابرة منقطعة النظير، ثم انتقل إلى جوار بارئه سنة ١٩٢٣م ونفسه راضية مرضية، وبعد ما شاهد انتشار دعوته وثمار حركته وكثرة أعوانه وأتباعه.

وشاء الله أن تكون لهذه الجمعية فيما بعد غصون وفروع فى جميع انحاء البلاد، وما درس فى اختلاف المستويات وجامعات وجوامع ومستشفيات وملاجئ للأيتام وما إلى ذلك، فلا تكاد توجد فى اندونيسيا قرية أو بلدة إلا وفيها فرع أو مدرسة أو مستشفى أو مستوصف أو ملجأ للأيتام أو مجلس للتعليم لهذه الجمعية،فكانت جمعية محمدية ـ بدون ريب ـ أكبر الجمعيات التى تحمل على عاتقها الدعوة الإصلاحية فى اندونيسيا، ويقال

إن المرحوم الشيخ السيد امين الحسينى كان يقول عند زيارته لأندونيسيا لحضور المؤتمر الآسيوى الأفريقى الأول أن جمعية محمدية أكبر جمعية إسلامية فى العالم .

أما جمعية الإصلاح والإرشاد فكانت تضم بعض أبناء العرب فى أندونيسيا، وظهرت بوصول الشيخ أحمد السوركتى السودانى إلى جاكرتا، وكان الشيخ يقيم مدة غير قصيرة فى المدينة المنورة قبل وصوله إلى أندونيسيا، نهل من مناهلها الصافية المعارف والعلوم وتلقى مبادئ الدعوة الإصلاحية من علمائها .

وكانت لهذه الجمعية منجزات ومؤسسات تعمل فى سبيل الدعوة الإصلاحية والتوعية الدينية فى المسلمين، فكانت لها آثارها الطيبة، ثم تتضاءل نشاطاتها باندماج أبناء العرب بأبناء الوطن الأصليين فى عهد الاستقلال .

وللشيخ أحمد السوركتى ـ رحمه الله تعالى ـ تلاميذ وأتباع أخذوا عنه العلم والمعرفة، وورثوا عنه روح الجهاد والحماسة، والذين لا يزالون على جهاد مستمر، منهم السيد عبدالرحمن باسويدان فى جوكياكرتا، والشيخ الأستاذ عمر هبيش فى سورا بايا .

وأما عن جمعية الوحدة الإسلامية التى ظهرت بفكرة الشيخ الحاج زمزم البالمبانى سنة ١٩٢٣م فأحب أن أتوقف قليلا عند اسم بارز فيها وهو الشيخ الأستاذ أحمد حسن، وهو أحد العلماء البارزين العاملين فى سبيل الإصلاح الدينى والوعى الإسلامى، وقد أخذ فى دعوته أسلوبا قريبا من أسلوب الشيخ محمد بن عبدالوهاب من حيث الصراحة وعدم المداهنة .

فكان يحارب الشرك والبدع والمنكرات، ويدعو إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ونبذ التقليد الأعمى والتعصب المذهبي بلسانه الحاد وقلمه الصارم.. ولا يخاف فى ذلك لومة لائم، له مؤلفات كثيرة منها: «تفسير الفرقان» و «محمد رسول الله» و «كتاب الصلاة» و «كتاب الأسئلة والأجوبة» وهو كتاب يحتوى على فتاواه الدينية وغيرها،وأصدرت تحت

رئاسته مجلة «المدافع عن الإسلام» التى كانت لها آثارها الكبيرة فى توجيه آراء الشبان المسلمين ولا سيما المثقفين منهم،وله تلاميذ أجلاء تفقهوا الدين عنده، منهم الدكتور محمد ناصر رئيس وزراء أندونيسيا الأسبق ورئيس الهيئة المركزية للمجلس الأعلى الأندونيسى للدعوة الإسلامية وأحد أعضاء المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى والرئيس بالنيابة لمؤتمر العالم الإسلامى.

وللجمعية عدة مؤسسات، منها معهد دينى فى مدينة بانجيل بجاوا الشرقية التى كانت تحت إدارة الشيخ أحمد حسن، أما مديره الحالى فهو الأستاذ/ عبدالقادر حسن أحد أبناء الشيخ الذى خلفه من بعده، فكان خير خلف لخير سلف .

وهناك مؤسسات أخرى منتشرة فى أنحاء البلاد على أيدى رجال لا ينتسبون إلى إحدى المؤسسات السالفة الذكر، ولكن تلك المؤسسات لها أهمية كبيرة فى بث الدعوة الإصلاحية والحركة السلفية، وهؤلاء الرجال على اختلاف استعداداتهم وتفاوت قدراتهم يعملون فى بث الدعوة ومحاربة الفساد جهد الطاقة .

وأذكر هنا من تلك المؤسسات على سبيل المثال : «المدرسة الأميرية الإسلامية» و«المدرسة السعدية» فى جزيرة سولاويسى، و«المدرسة الإسلامية السلطانية» التى كانت تحت إدارة الشيخ الحاج محمد باشونى عمران فى سمباس بكالمنتان و«مدرسة المعلمين» التى أقامها الأستاذ الحاج عبدالرحمن فى امونتاى، و«المدرسة الوطنية الإسلامية» فى جاوا الوسطى،ومعهد مسكومبان الإسلامى» فى قرشيك .

وبخصوص هذا الأخير أود أن أذكر شيئا عنه، فإن القائمين بالتدريس فى المعهد كانوا من أشد أعداء الدعوة القائلين بأن الطائفة الوهابية طائفة منحرفة عن الدين وخارجة على أهل السنة والجماعة وقائلة بتضليل من عداها من المسلمين، وأنها لا تحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وتحقر شئون الأولياء وشعائر الدين، وغير ذلك من الأكاذيب والافتراءات .

فلا عجب، فإن هؤلاء لم تصل إليهم من المعلومات عن الدعوة الوهابية إلا ما بثه أعداء الدعوة من أدعياء العلم وأذيال اشراف الحجاز في الكتب التي ألفوها المشحونة بالأكاذيب والترهات والحكايات الخيالية الخبيثة ضد الدعوة.

ثم تغيرت الأحوال بعد رجوع الشيخ عمار فقيه أحد أولاد شيخ المعهد الأسبق من أداء فريضة الحج سنة ١٩٢٨م، الذى اتصل بعلماء الدعوة مدة إقامته فى بلد الله الحرام، وتلقى منهم حقيقة الدعوة ومبادئها، حتى أدرك مدى ما للدعاية ضد الدعوة من مفتريات وأكاذيب، وأيقن أن معظم العلماء الأندونيسيين كانوا ضحايا أكاذيب المفترين .

فلما أبدى آراءه على ملأ قام النزاع والجدال بينه وبين العلماء الذين ما زالوا على فكرتهم الأولى، واشتدت وطالت المنازعة والمجادلة حتى انتهى الأمر بتغلب دعوته وانتشار آرائه وكثرة أتباعه .

ولما صار أمر المعهد تحت يده من بعد والده الشيخ محمد فقيه، ازداد نفوذ الدعوة وانتشارها، وصار المعهد مركزا لنشر الدعوة الإصلاحية والحركة السلفية فى تلك المنطقة، وكثير من دعاة الإصلاح وحملة الدعوة المنضمين إلى الجمعيات كانوا من متخرجى المعهد، وللشيخ عمار فقيه عدة مؤلفات منها «تحفة الأمة فى العقائد ورد المفاسد» و«هداية الأمة» و«صلة الأمة» و«تحديد أهل السنة والجماعة» ومما أوصى به فى مرض موته قال:

دعوا شيعا شتى تشتت شملكم — دعوا بدعا يخشى بها ما يهول
دعوا كل بدعة دعوا كل شيعة — إلى ملة قد كان فيها الرسول
تصيروا بعون الله من أهل سنة — يواصى عليها أن يعض العقول

ثم بعد انتقاله إلى جوار بارئه الرحيم سنة ١٩٦٥م خلفه الأستاذ نجيح أحيد، صهر الشيخ وأحد تلاميذه.

وفى عهد مدير المعهد الحالى قرر فيه تدريس كتاب التوحيد تأليف الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى جانب الكتب التى تكون على منواله .

تأثيرات كتاب التوحيد
تأليف الشيخ محمد بن عبدالوهاب

وكتاب التوحيد تأليف الشيخ محمد بن عبدالوهاب غنى عن التعريف به عند من له أدنى إلمام بدعوته، وهو عندى من أهم الكتب التى ألفها الشيخ والتى لم تصل إلى أندونيسيا إلا بندرة .

والكتاب مع ندرته وصعوبة تناوله فى أندويسيا يعد من أهم المراجع فى دروس التوحيد فى مدارس ومعاهد دينية وجامعات إسلامية، ومن الكتب المقرر تدريسها فى بعض المعاهد الدينية أمثال المعهد الوطنى الإسلامى فى كبارونجاوا الوسطى ومعهد مسكومبان الإسلامى فى قرشيك - كما مرّ -.

والحق - كما شهد عليه كثير من الكتاب - أن الشيخ ما جاء فى كتابه هذا بجديد، أو ما اخترع فيه شيئا، وإنما جاء بتعاليم الدين كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وفهمه أصحابه وأتباعهم، ولكن الدين قد عاد غريبا عند معظم أهله كما بدأ.

فكان علم التوحيد عند الأكثرين علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب فى حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل فيه من الصفات، وعن الرسل وما يجب فى حقهم وما يجوز وما يستحيل، ومسائل أخرى تتعلق بتلك المباحث .

والكتب التى يدرسونها فى علم التوحيد مشحونة بتعقيدات المتكلمين وتغميضات الفلاسفة وثرثرة المدعين التى قد تعلو على عقول أكثر الخواص فضلا عن العوام، وقد تدخل الشكوك على قلوب الأكثرين، وربما يجوز لنا القول أن كل شئ من ذلك فيها إلا التوحيد نفسه.[١]

(١) أعنى توحيد الألوهية الذى هو أحد شقى التوحيد.

التوحيد غاية دعوة الرسل:

لا يخفى على من له أدنى معرفة بالدين أن التوحيد غاية لدعوة الرسل من لدن أبي الأنبياء إلى آخر الرسل وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الناس يغلب عليهم الإشراك.

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ » (يوسف ١٠٦)

فهم مع إيمانهم أن الله هو خالق الكون ومالكه ومدبر شئونه يتوهمون أن له أعوانا ووسائط مقربين من ملائكة وجن وإنس وأرواح وغيرها، وأن لتلك الوسائط والأعوان شيء من النفوذ في تدبير أمور الكون منعا وعطاء، وشيء من حق الملكية أمرا ونهيا، ويتوهمون أنهم أذل لأن يدعوا الله ويسألوه مباشرة وأنه أبعد لأن يرفعوا إليه حاجاتهم أو يلجأوا إليه عند الشدائد، لذلك نراهم سريعي الإعراض عن الله تعالى إلى ما يتوهمون فيه أنه شريك له أو معين له أو مقرب إليه أو شفيع عنده أو وسيط بينه وبينهم .

فمن ذلك نرى أن أول ما يدعو إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأشده الرجوع إلى التوحيد النقي من شوائب الإشراك،فننبه بقوله تعالى:

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » (الأنعام ـ ٨٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ». (رواه الشيخان عن عبادة)، وقوله صلى الله عليه وسلم:«إن الله حرم على النار من قال «لا إله إلا الله»

يبتغى بذلك وجه الله » (أخرجاه فى حديث عتبان)، وقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى أنه قال: «لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة، ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله» (رواه ابن حبان والحاكم عن أبى سعيد) .

وقوله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: «يا ابن آدم، لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» (رواه الترمذى عن أنس). وقوله صلى الله عليه وسلم: «من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة».

واعلم أن التوحيد أول ما يدعو إليه الدين مستدلا بحديث ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال له إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله .. وفى رواية: إلى أن يوحدوا ... الحديث (رواه الشيخان).

ونبه بأن الشرك أعظم الذنوب الذى لا يغفر الله لفاعله إلا إذا تاب، وذكر قوله عز وجل:

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ »

(النساء ـ ٤٨).

وأنه لا يأمن أحد من وقوعه فيه، فإن خليل الله ابراهيم مع قربه من الله وعصمته سأل الله أن يجنبه وذريته إياه، قال تعالى حاكيا دعاءه عليه السلام:

« وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » (ابراهيم ـ ٣٥).

وأن الشرك يقع فى هذه الأمة فى أى نوع من أنواعه، وذكر فى الاستدلال بقوله تعالى:

« أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ »

(النساء ـ ٥١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى، قال: فمن » (رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى) وقوله صلى الله عليه وسلم: « لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » (رواه البرقانى فى حديث طويل عن ثوبان) .

مفهـــوم التـوحيـــد:

إن منتهى ما وصلوا إليه فى علم التوحيد الاعتقاد بأن لهذا العالم خالقا واحدا وهو الله، وهو وحده مالكه والمسيطر عليه وواضع قوانينه التى يسير عليها، وهو واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا ـ ولا شك ـ أحد شقى التوحيد وهو توحيد الربوبية، ولا يصلون إلى شقه الآخر وهو توحيد الألوهية الذى يقتضى من العباد توحيد العبادة .

وذلك لعدم إدراكهم أن التوحيد لا يتحقق إلا بشقيه وعدم علمهم أن توحيد الألوهية هو مفترق الطرق بين المسلمين وبين المشركين الذين حكاهم الله بقوله عز وجل:

« وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ » (العنكبوت ـ ٦١)

وقـــولـه تعـــالى :

« قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ
وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ
تُسْحَرُونَ » (المؤمنون ـ ٨٤ ، ٨٩).

كما حكى عنهم بقوله تعالى :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » (الزمر ـ ٣).

ولا أقول إن منتهى ما وصلوا إليه فى التوحيد هو عين ما وصل إليه مشركو مكة زمن البعثة، ولكن أريد أن أذكر أن مباحث الكتب المتداولة فى علم التوحيد كانت تدور حول الاستدلال على وجود الله ووحدانيته فى ذاته وصفاته وأفعاله وما إلى ذلك بأدلة كلامية أو شبه كلامية، أقصى ما تصل بهم إليه هو توحيد فى المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أما توحيد الألوهية فلا تدخل تحت مباحثها ولا تكون أمام اهتمام الطلاب.

أما ما أتى به الشيخ فى كتابه فى المسألة فهو: أن التوحيد ضد الشرك، وأن الله أرسل رسله ليأمروا الناس بالتوحيد الذى هو إفراد العبادة لله تعالى، وينهوهم عن الشرك الذى هو صرف العبادة له ولغيره سبحانه، وأتى بالأدلة على ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، منها قوله تعالى:

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (الذاريات ـ ٥٦).

وقوله تعالى:

« وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »

(النحل ـ ٣٦)

وقوله تعالى:

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » (الإسراء ـ ٢٣).

وقوله تعالى:

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » (النساء ـ ٣٦).

وقوله تعالى:

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »

(الأنعام ـ ١٥١).

وقول النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » (رواه الشيخان عن معاذ بن جبل).

وليتضح معنى التوحيد ومعنى الشرك فلا بد من بيان معنى العبادة،فإنها إذا أفردت لله تعالى وحده فهو التوحيد، وإذا صرفت لله ولغيره فهو الشرك .

بيـــان معنى العبـــادة:

اختلفت ألفاظ العلماء فى بيان معنى العبادة وتعريفها على اختلاف مشاربهم ومآربهم، وكان الشيخ لا يلتجئ إلى تلك الألفاظ، ولكن بين معنى العبادة والمراد بها بطريق عملى .

وأعنى بذلك أنه بين أن التوحيد ضد الشرك، وهما متنافيان،فلا يتحقق التوحيد إلا بالبعد عن الشرك، وهو صرف العبادة إلى غير الله تعالى، ثم ذكر أشياء نهى الدين عنها على أنها تعد عبادة لغير الله وهو الشرك أو ذريعة إلى الشرك .

فمن الأشياء التى ذكرها دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين فى قضاء حوائجهم أو دفع بلائهم زعما من الناس أنهم وسطاء بينهم وبين الله،وأن لهم تأثيرا فى قضاء حوائجهم أو دفع ضرهم، ثم استدل على بطلانه وأنه ينافى التوحيد بقوله تعالى :

« أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا »

(الإسراء ـ ٥٧).

وقوله تعالى:

« وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (يونس ١٠٦).

وقوله تعالى:

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ »

(الزمر ـ ٣).

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لفاطمة: « يافاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئا » (رواه البخاري عن أبي هريرة) وغير ذلك.

ومنها طاعة العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، صرح الشيخ أن ذلك عبادة لهم مستدلا بما جاء في السنة: أن عدي بن حاتم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية:

« ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (التوبة ـ ٣١).

فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه فقلت: بلى، قال فتلك عبادتهم. (رواه احمد والترمذي)، وأيد ذلك بما روى عن ابن عباس أنه قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول قال رسول الله، وتقولون قال أبوبكر وعمر، وقول أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول:

« فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (النور ـ ٦٣).

أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة: الشرك.

ومنها التحاكم إلى غير حكم الله، واستدل بقول الله عز وجل :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا »
(النساء ـ ٦٠، ٦١).

وقوله تعالى:

« أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »
(المائدة ٥٠).

وقوله صلى الله عليه وسلم:« لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » (رواه الطبرانى وأبوبكر وأبو نعيم عن ابن عمرو).

ومنها التبرك بنحو قبر أو شجرة أو نحوهما، واستدل بحديث ابى واقد الليثى: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، إنها السنن، قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة (الأعراف: ١٣٨) قال: إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم (رواه الترمذى وصححه).

ومنها الغلو فى الصالحين وفى قبورهم، وأتى فى الاستدلال بقوله تعالى:

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ »
(النساء ـ ١٧١).

وبما صح عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعالى:

وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا »
(نوح ـ ٢٣).

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا اوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسماءهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت، وبما رواه الشيخان عن عمران أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله »، وقوله صلى الله عليه وسلم: « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس)،وبما روى عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله ». (رواه الشيخان)، وبما روى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ». يحذر ما صنعوا ولو لا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا، وبما رواه مسلم عن جندب بن عبدالله، قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: « ألا وإن من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك »، وبما روى مالك فى الموطأ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقوله صلى الله عليه وسلم: « لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنت »، وغير ذلك .

ومنها النذر والذبح لغير الله، وأتى بما نهى عن ذلك من الأدلة، وهو قوله تعالى :

« يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا » (الانسان - ٧).

وقوله تعالى:

« وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ » (البقرة - ٢٧٠).

وحديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ».(رواه البخارى)

ومما قال فيه: إذا ثبت كون النذر عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك. ثم أتى بقوله تعالى:

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »

(الأنعام ـ ١٦٢)

وقوله تعالى:

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ »

(الكوثر ـ ٢)

وبحديث على رضى الله قال: حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: « لعن الله من ذبح لغير الله .. الحديث » (رواه مسلم)، وما رواه أحمد عن طارق بن شهاب فى رجلين أحدهما لا يقرب لصنم ولو ذبابا فضربوا عنقه فدخل الجنة وقرب الآخر له ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار.

ومنها الاستعاذة والاستغاثة والحلف بغير الله، واستدل بقوله تعالى:

« وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

(الجن ـ ٦).

وقول النبى صلى الله عليه وسلم: « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » (رواه الطبرانى عن عبادة بن الصامت)، وأتى فى الحلف بما رواه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه عن عمران أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حلف بغير الله فقد

كفر أو أشرك »، وبما رواه ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تحلفوا بآبائكم من حلف له بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله في شئ »، وقول ابن مسعود: « لأن أحلف بالله كذبا أحب إليَ من أن أحلف بغير الله صادقا ».

ومنها الكهانة والعرافة والسحر والتطير، وأتى بما دل على نهى الشارع عن ذلك نهيا مغلظا، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من أتى عرافا فسأله عن شئ فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما ». (رواه مسلم عن بعض أزواج النبى)، وقوله: « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » (رواه ابو داود عن أبى هريرة).

وقوله : « ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » (رواه البزار بإسناد جيد عن عمران بن حصين)،وقوله تعالى :

« وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ »

(البقرة - ١٠٢).

وما روى عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر (رواه البخارى)،وقوله صلى الله عليه وسلم: « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد » (رواه أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس)، وحديث أبى هريرة للنسائى: « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك »، وما روى عن ابن مسعود مرفوعا : «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك، ومامنا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» (رواه ابوداود)، وما روى عن ابن عمر: « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » (رواه احمد).

فبذلك اتضح لمريدى الحق أن ما شاع بين المسلمين من تلك الأفعال مناف للتوحيد

أو مناقض له، وأن التوحيد لا يتحقق إلا باجتنابه، وأن من أسباب ارتكاب كثير من تلك الأفعال الشركية هو توهمهم أن التوحيد إنما هو توحيد الربوبية، فلا يرون بأسا بارتكابها ما داموا يعتقدون أن الله واحد فى ذاته وأفعاله وصفاته، كأنهم يرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإنما دعاهم إلى شهادة أن لا رب إلا الله .

صفـات الله تعـالى :

وأهم مباحث علم التوحيد التى توجد فى بطون الكتب هو البحث عما يجب فى حق الله تعالى من الصفات وما يجوز وما يستحيل، أما ما يجب فى حقه تعالى فقيل ثلاث عشرة صفة، وقيل عشرون، وهى واحدة نفسية وخمس سلبيات وسبع صفات المعانى وسبع معنويات، وأما ما يستحيل فى حقه تعالى فهو أضداد ما يجب، والجائز فى حقه تعالى هو فعل كل ممكن أو تركه، ونظمها بعضهم:

وبعد فاعلم بوجوب المعرفة	من واجب لله عشرين صفة
فالله موجود قديم باقى	مخالف للخلق بالإطلاق
وقائم غنى واحد وحى	قادر مريد عالم بكل شىء
سميع بصير والمتكلم	له صفات سبعة تنتظم
فقدرة إرادة سمع بصر	حياة العلم كلام استمر
وجائز بفضله وعدله	ترك لكل ممكن كفعله

وهذه الإحدى والعشرون وأضداد العشرين المستحيلة والأربعة التى تجب فى حق الرسل وأضدادها المستحيلة والواحدة التى تجوز فى حقهم معروفة عندهم بالعقائد الخمسين، التى تجب معرفتها ـ عندهم ـ على كل مكلف، وتجب عليه معرفة أدلتها إجماليا وتفصيليا، واختلفوا فيه: فقال بعضهم يشترط أن يعرف الدليل التفصيلى لكل واحد من هذه الخمسين، وقال الآخر أنه يكفى معرفة الدليل الاجمالى، كما اختلفوا فى كفاية التقليد فيها وعدمها .

والحق أنهم لا يأتون من الكتاب والسنة بما يدل على وجوب معرفة تلك الخمسين على كل مكلف مستقلة عن غيرها من سائر المعتقدات الإسلامية، وقد لا يقولون بوجوب اعتقاد ثبوت تلك العشرين فى حق الله تعالى دون سائر الصفات التى وصف الله بها نفسه إلا تقليدا لمن سبقهم، وقد لا يعرفون أن هذا القول لا عهد له فى عهد الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

وأعتقد أنى لا أجافى الحق حين أقول: إن تحرير مثل تلك العقائد وتقريرها بالأدلة النظرية العقلية الصحيحة لحاجة ماله أهميته فى وقت من الأوقات وفى بيئة من البيئات.

والواجب على كافة المسلمين فى جميع الأزمنة والأمكنة هو الايمان بجميع الصفات التى وصف الله بها نفسه فى كتابه المبين وعلى لسان نبيه الأمين ضمن الايمان بكتاب الله وبرسوله .

أما الشيخ فقد ذكر فى كتابه آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة تدل على وحدانيته فى ربوبيته وألوهيته واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص، ودعا إلى الإيمان بجميع الصفات التى وصف الله بها نفسه فى كتابه أو على لسان نبيه، ونهى عن جحد شئ منها أو الإلحاد فيه، ومما ساقه من الأدلة على ذلك قوله تعالى حكاية عن حال مشركى قريش : وهم يكفرون بالرحمن :

« قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ »

(الرعد-٣٠)

وقوله تعالى :

« وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ » (الأعراف ١٨٠).

وسلك نهج السلف ذلك من الايمان بجميع ما ورد من الصفات والأسماء التى وصف الله بها نفسه، أو سمى بها نفسه كما وردت من غير تكييف ولا تعطيل، والراسخون فى العلم يقولون :

« ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » (آل عمران ـ ٧).

صرح غير واحد من علماء التحقيق أن الفكر فى ذات الله تعالى ممتنع عن العقل البشرى مهما عظمت قوته، وأن معرفة الله بمعرفة أسمائه وصفاته التى تليق بربوبيته وألوهيته التى تعرف بها إلى خلقه، وبالنظر إلى بدائع صنعه وعجائب خلقه وبالاستعانة بطاعة الله وحسن عبادته، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، أما الخوض فى المسائل الكلامية والمباحث الفلسفية فى ذلك فهو أقرب إلى رياضة عقلية منه إلى مهمة دينية .

الإيمـــان بالقـــدر :

ومعلوم من الدين بالضرورة أن الايمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الايمان، وجاءت الآيات القرانية والأحاديث النبوية تبينه وتبين ما يتعلق به بعبارات سهلة واضحة، سائغة للعقول، بعيدة من التعقيد والغموض، ولكن الناس أرادوا غير هذا وتنطعوا فى المسألة، واستحبوا الفتن البالية التى أثارتها الجبرية والقدرية، مع عجزهم عن حلها وبحثها بما يشفى الغليل، وعدم إتيانهم بجديد إلا تناظر فى الألفاظ والأساليب، فلا يحدث بذلك عند الطالبين سوى دوار فى الرؤوس، وشكوك فى القلوب، واضطراب فى النفوس.

أما ما جاء به الشيخ فى كتاب التوحيد فهو ـ عندى ـ نفس ما جاء به الدين فى ذلك، وذلك أنه بين أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الايمان ولا يتحقق الإيمان إلا به، فذكر حديث ابن عمر: « والذى نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله منه حتى يؤمن بالقدر »، ثم استدل بقول النبى صلى الله عليه وسلم: « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » (رواه مسلم)، وحديث ابن وهبه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فمن لم يؤمن بالقدر أحرقه الله بالنار ». (رواه احمد).

ثم بين كيفية الإيمان بالقدر، وهو أن تعلم أن ما أصابك من نفع أو ضر فهو بقدر الله، ولم يكن ليخطئك مهما كان سعيك، وإن ما أخطأك من خير أو شر فهو بقدر الله، ولم يكن ليصيبك مهما كان حرصك، وأتى فى الاستدلال بحديث عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بنى إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال: رب وماذا أكتب، قال اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة، يا بنى، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:« من مات على غير هذا فليس منى ». (رواه أبو داود)، وبما ورد عن ابن الديلمي قال: أتيت أبى بن كعب فقلت: فى نفسى شى من القدر، فحدثنى بشئ لعل الله يذهبه من قلبى، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم. (رواه احمد وأبو داود والحاكم).

هذا فيما وقع فى الماضى، فلا ينبغى لنا أن نقول فيما يسوءنا مما وقع: لو فعلنا كذا لما وقع، أو : لو كنا لم نفعل كذا لوقع على مثل ما أردنا، لأن ما وقع إنما هو بقدر الله سابق علمه، لا يرده كراهية كريه، ولا يجلبه حرص حريص، ثم ذكر فى الاستدلال ما حكاه الله عن بعض المنافقين يوم أحد بقوله سبحانه :

« يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا »

(آل عمران ـ ١٥٤).

وقوله تعالى:

« ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ »

(ال عمران ـ ١٦٩).

وما روى عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: « وإن أصابك شئ فلا تقل لو فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل » (رواه مسلم).

أما ما يقع فى المستقبل فعلينا أن نعمل جهد طاقتنا فى تحصيل ما رأينا فيه الخير والمنفعة، ودفع ما رأينا فيه الشر والمضرة، ونستعمل فيه الوسائل، ونسلك فيه الأسباب، ونتعظ بما مضى من تجاربنا، ونعتبر بما وقع حولنا، مستعينين بالله على تحصيل مطلوبنا، وأن لا يقعدنا العجز والفتور، وذكر فيه ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن » (هذا أول الحديث الآنف الذكر).

وبين أن من أصابته ضراء فليعلم أنها إنما وقعت عليه فى ماضيه بقدر الله ومشيئته، فليس له إلا الرضا وحسن الظن بالله، فربما ابتلاه الله لحبه إياه وإرادته الخير به، وذكر حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » (رواه الترمذى والحاكم)، وقوله صلى الله عليه وسلم: « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط » (رواه الترمذى عن أنس)، ولا يدخله اليأس والقنوط، لأن اليأس والقنوط لا ينبغيان إلا لمن ضل عن الصراط السوى، ولم يؤمن بالقدر، واستدل بقوله تعالى:

« إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ »

(يوسف - ٨٧).

وقوله تعالى:

« قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ » (الحجر - ٥٦).

وبما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر فقال: « الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله » (رواه البزار وابن

ابى حاتم)، وما روى عن ابن مسعود أنه قال: « أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله » (رواه عبدالرزاق ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عنه).

وأن من أصابته سراء فليعلم أن ما أصابه إنما هو ما وقع فى ماضيه بقدر الله تعالى، وأن ما يقع فى مستقبله فلا يزال فى علم الله فى كنف الغيب، ولا يستبعد أن يكون ذلك ابتلاء من الله فلا يأمنن مكره، ولا يقل إن ما أصابه من النعم كان ينبغى له لعلمه وشرفه،وأن تلك النعم كانت حظه فى الماضى ولابد أن يكون حظه فى المستقبل، واستدل بقول الله عز وجل:

« أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »

(الأعراف ٩٩).

وقوله تعالى:

« وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »

(فصلت ٥٠)

وقوله تعالى حكاية لقارون :

« قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » (القصص ٧٨).

ثم أتى بقصة ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، الذين ابتلاهم الله بالخير فهلك اثنان ونجا واحد منهم، كما فى رواية الشيخان عن أبى هريرة.

وبذلك بين للناس ما للإيمان بالقدر من فوائد عملية عظيمة يتذوق حلاوتها من عايشها، وهى الصبر والرجاء وعدم القنوط والجزع عند وقوع البلاء، والشكر والحذر وعدم العجب والاختيال عند نزول النعمة، فيكون دائما منشرح الصدر مطمئن البال متكلا على رحمة ربه الواسعة وحكمته العليا.

تأثيرات كتاب التوحيد :

وبعد لمحات قصيرة إلى أهم ما جاء به الشيخ فى كتاب التوحيد، أحب أن أذكر هنا تأثيراته الإصلاحية، لا على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال :

١ ـ إزالة سوء الفهم بدعوة الشيخ، فإن كثيرا ممن شنوا الغارة على الدعوة لم يصل اليهم شئ عن الدعوة إلا ما شوهه المفترون بالأكاذيب، وهؤلاء تغيرت أحوالهم تجاه الدعوة وشخصية الشيخ بعد ما قرأوا ما فى الكتاب، بل صار كثير منهم فيما بعد من مؤيديها المخلصين.

٢ ـ كثرة ذكر المواد التى توجد فيه على ألسن الدعاة والوعاظ والمدرسين، وفى المقالات الصحفية والكتب الدينية، حتى على ألسن أولئك الذين أظهروا العداوة ضد الدعوة بدافع العصبية المذهبية أو الطائفية .

٣ ـ اللجوء إلى الاستدلال بالكتاب والسنة على إثبات العقائد الدينية، حتى على إثبات العقائد التى قرروها بأدلة عقلية صرفة .

٤ ـ قلة المنازعة والمجادلة فى مسائل كلامية، إلا فى بيئات محدودة .

٥ ـ هدم كثير من أبنية القبور والأشجار والأحجار والموارد التى كانوا يتبركون بها، ولا سيما فى المناطق التى كان أكثر أهلها ممن انتسبوا إلى الجمعيات الإصلاحية .

٦ ـ عدم بناء الأبنية على قبور الخواص ممن كانوا ينتسبون إلى الحركات الإصلاحية.

٧ ـ غياب كثير من الحفلات التى كانوا يقيمونها لذكرى موت أحد من العلماء والصالحين مرة فى السنة والتى يسمونها فى عرفهم « ذكرى الحول »، وكثير من حفلات مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلانى الذى يذبحون لها الديوك تقربا إلى الشيخ .

٨ - ذهاب كثير من الأفعال التى اخترعوها شفاعة لموتاهم - على زعمهم - أو تقربا إليهم .

٩ - كساد أسواق العزائم والتمائم والتولات ، التى كانت عروض التجارة لبعض أولئك الذين يتوهمون أنهم أهل الدين.

١٠ - قلة ثقة الجمهور بأدعياء الولاية الذين اتخذوا الكهانة والعرافة حرفة لأنفسهم ويتظاهرون بالورع والتقوى .

١١ - ازدياد الوعى الدينى فى جماهير المسلمين، وازدياد ممارستهم شرائع الدين، وتحاكم كثير منهم إلى حكم الشريعة فى مخاصمتهم .

١٢ - زيادة الاعتناء بآراء الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتعاليمه وكتبه التى تكون - مع الأسف - نادرة الوجود فى المكاتب والمدارس فى اندونيسيا وصعبة التناول فى الدكاكين والأسواق .

١٣ - وغير ذلك مما لا تحصى .

فإذا ذكرت تلك التأثيرات العريضة، فلا أعنى أن كل شئ يجرى دائما على ما يرام، فلم تزل هناك عقبات تستهدف إمام هذه الدعوة من بقايا سوء الفهم بالدعوة، والعصبية الطائفية التى ترى فى الدعوة ما يهدد كيانها ونفوذها وأغراضها، والأفكار المعادية للإسلام والحركات الهدامة له من الحركة الباطنية والغارة التبشيرية والعلمانية والعصبية الشعبية وما إلى ذلك.

هذا ورحم الله الشيخ وأكرم مثواه وأجزل ثوابه .